يوسف الأشقر

حرب التحرير القومية

ابعادها – طبيعتها – خصوصيتها

ا - خصوصية الحرب علينا

ا- هل هي مؤامرة؟

في رأينا أن ما يجري في بلادنا وفي العالم بصدد بلادنا هو أعلى مستويات الحرب. أن كلمة مؤامرة لا تفي بالغرض، الا إذا شئنا، استبدادا، أن نحمل كلمة مؤامرة فوق ما تعني او إذا شئنا أن نعني اقل مما هو حاصل

بل ان اختصار حربنا بكلمة «مؤامرة» مع ما بني على ذلك من استنتاجات واجتهادات، اساء بشكل بالغ، الى عامل الوعي في شعبنا، اذ كان له دور تضليلي في ترسيخ الاعتقاد بتعددية الأطراف المتآمرة الى ما لا نهاية، وتحويل الانظار عن مصدر الحرب الاساسي الواحد. قد يجوز إطلاق كلمة مؤامرة بالمعنى التاريخي والحضاري العام، وهذا شيء آخر كليا.

ب - هل هي حرب تقليدية؟

تميز بين نوعين من الحروب التقليدية:

- الحروب التقليدية في التاريخ مواصفاتها معروفة بالرغم من خصوصيات بعضها.

- ثم الحرب الامبريالية المعاصرة.

الحرب الامبريالية المعاصرة تختلف عن الاولى بطبيعتها وحجمها وعمق اجتياحاتها وسرعتها. ولكن بالرغم من هذا الفارق النوعي اعتبرناها، بالنسبة إلينا، تقليدية بمعنى انها لا تتميز عندنا بفارق نوعي عنها في العالم. وإذا كانت الحرب الامبريالية قد تميزت عندنا بالخدمات المتميزة التي قدمتها وتقدمها ل "إسرائيل"، مصدر خصوصية الحرب علينا، فذلك لا يدخلها في جوهر هذه الخصوصية في رأينا.

نلخص الى القول ان الحرب علينا هي، في جانب منها، تقليدية، وهي في جانبها الأهم، خصوصية فريدة.

ج - الحرب الفريدة

الجانب الفريد في حربنا، الجانب الأهم والأخطر، هو حرب اليهود علينا. لم يشهد تاريخ الإنسانية، قديمه وحديثه، حربا اشد وضوحا وبساطة ومباشرة في طبيعتها وأهدافها، واشد غموضا وتعقيدا وتنوعا والتواء في صيغها وأساليبها ووسائلها.

تستهدفنا ليس فقط في وجودنا الافقي كجيل معاصر قائم من اجيال مجتمعنا، بل كمجتمع في كليته، في سياق اجياله وتاريخية وجوده. فمجتمعنا، عموديا، يجب أن يغيب ومعه ستة آلاف سنة من وجوده في قلب التاريخ وكمصدر لأهم النقلات الثقافية النوعية ولأول عهد حضاري، وكمصدر ومعين متواصل ومتجدد لاهم تراث مناقبي انساني من سرجون وحمورابي وزينون إلى المسيح ومحمد. ولهذا الغرض تشكل "إسرائيل" واليهود في العالم فرق حرب تطارد ستة آلاف سنة من تراثنا وتقاليدنا وكل مسيرتنا الثقافية والاجتماعية والسياسية.

ومجتمعنا، افقيا، يجب أن يتفكك وينهار ويتبدد، فيفقد هويته - ومؤسساته وايمانه بنفسه كشعب، فتخرب مرافق حياته وتبدأ ارض بلاده، على سعتها، تضيق بالإنسان واسباب عيشه، ليجد نفسه اخيرا أمام خيارين: إما أن يتنازل عن حقوقه المدنية والسياسية ويرضى بالعيش ضمن الحجم والعدد والمستوى والحدود المسموح بها، وأما أن يهاجر

لغير رجعة. ولهذا الغرض تشن "إسرائيل" حربها الاجتثاثية التدميرية على كل خريطة حياتنا القائمة على ارض وطننا وفي العالم.

هل من ضرورة لتقديم شواهد على ذلك لنسترجع بالتفصيل الحروب التي يشنها المؤرخون اليهود على كل حفرية أثرية تقوم عندنا وعلى كل لوحة ومخطوطة وأثر، من نينوى وماري وبابل الي رأس شمرا وايبلا، الى البحر الميت وجبيل وصور؟ او لنسترجع كامل قصة آثارنا منذ مطلع هذا القرن، على الأقل، وما أصاب هذه الكنوز من نهب وتدمير، او من تحريف وتزوير، أو من استنطاق تشويهي، والذي يراقب الحملات اليهودية على اكتشافات ايبلا ومضمون هذه الحملات يعرف أبعاد الحرب الإسرائيلية وشراستها ويتأكد من حقيقة ما نعني بقولنا انهم يطاردون ستة الاف سنة من حياة مجتمعنا بنفس الشراسة ولنفس الغرض التدميري الاجتثاثي في اجتياحهم خريطة حياتنا المعاصرة.

في هذا البعد الاجتثائي التدميري لمجتمعنا، عموديا وأفقيا، ترتسم ملامح خصوصية الحرب علينا، في طبيعتها وفي أهدافها.

2- **في خصوصية المرحلة الحربية الراهنة**

إذا كان تقويض مجتمعنا هو غرض الحرب الإسرائيلية بشكل عام، فالمرحلة الحربية الراهنة تكشف بامتياز عن هذا الغرض. الم تقرر "إسرائيل"، بعد حرب حزيران أولا، ثم بعد حرب تشرين تأكيدا، ان تتعامل، حصرا، مع بنية مجتمعنا، تعاملا حربيا مباشرا، دون المرور، الا مداورة ومجانية، بالتعامل الحربي مع الأنظمة والجيوش وسائر القوى المسلحة؟

التعامل الحربي المباشر مع بنية مجتمعنا: هذا هو العنوان الكبير للمرحلة الحربية الراهنة. وإذا اخذنا مسلسل هذه المرحلة، وجدنا أن "إسرائيل" تمكنت مثلا من ايصالنا الى هذه الحالة في لبنان بفضل تمكنها من التعامل الحربي المباشر مع ثغراتنا الاجتماعية والثقافية واوضاعنا الداخلية العامة أكثر مما كان بفضل تدخل المدافع والأساطيل، الجوية والبحرية. وفي رأينا أنها ستستمر على خطتها هذه: مناوشة الجيوش والأنظمة والمنظمات سياسيا وعسكريا، كتحرك تكتيكي، والاستمرار في ضرب العمق الاجتماعي، المادي والمعنوي، السياسي - الاقتصادي والثقافي - النفسي، كغرض استراتيجي حتى لو قررت "إسرائيل"، قريبا، حربا مباشرة، فان اهدافها الأساسية، في رأينا، هي، بالإضافة إلى احتلال الارض، حسم اوضاع في قلب مجتمعنا لمصلحتها، سواء أوضاع خاصة بكيان او أكثر، وأوضاع تتناول علاقات بعض الكيانات ببعضها الآخر. فيكون هدف حسم الأوضاع المتعلقة بالمجتمع وبنيته وانماط علاقاته متقدما في الأهمية. أكثر من ذلك: حتى المناطق الاستراتيجية في عمق وطننا، تعتمد "إسرائيل" خطة دخولها اليها وتحكمها بها من خلال تفجير وضعها الداخلي. مثال على ذلك: الشريط الساحلي من النافورة الى لواء الإسكندرون هو مفصل استراتيجي حيوي في حياة سورية، وهو رئتها وبوابتها، وقد كان احتلاله، تاريخيا، هدف الفاتحين والدول الطامعة في أضعاف سورية. ولا شك أن هذا الشريط تركز عليه "إسرائيل" في مرحلتها الحربية الراهنة، ولكن ليس بالهجوم المباشر عليه بل بالسيطرة عليه من داخله او بتفجيره وتفجير الاوضاع العامة به، كنهج استراتيجي.

اننا نعتقد ان خطة "إسرائيل" تقوم على «خطوط حمر» اجتماعية وسياسية وأمنية واقتصادية وثقافية متقدمة على الخطوط الحمر العسكرية. انها تمثل نسبة عالية من المجهود الحربي الإسرائيلي، كما تقف وراء نسبة عالية مما يجري في أوساطنا. ولا شك أن هذه النقطة بالذات تحتاج إلى دراسات مستقلة نظرا لأهميتها الحالية ولموقعها المميز في مفهوم السلم الإسرائيلي.

وإذا كانت هذه الخطوط الحمر خفية ومضمرة، فسيرتفع صوتها عاليا عند أول مناسبة في لائحة شروط "إسرائيل" الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والادارية والتعليمية والثقافية والدينية، فضلا عن الامنية والعسكرية. وإذا كانت الان شروطها تتعلق بالصواريخ ومواقعها والطائرات وطلعاتها، والجيوش وتنقلاتها، فستكون شروطها غدا متعلقة بعدد الجامعات ونوع الكليات ومستويات العلوم المسموح بها في مفهوم أمنها القومي. وهذا النوع من الشروط سينسحب على أكثر الأمور والقطاعات الأخرى في حياتنا: على التربية والتعليم والصحافة والإذاعة والتلفزيون وقوانين الأحزاب والانتخابات والمشاريع الإنمائية ومواقع الصناعات وحجمها ومستواها..

ولن تعدم "إسرائيل" وسيلة لإيجاد الصيغ والاسماء لتغطية هذا التحكم بحياتنا. ففي مصر مثلا، وبحجة تطبيع العلاقات وتعزيز الثقة وروحية السلم، أصبح للإسرائيلي قبضة على حياة مصر الداخلية وقراراتها الداخلية والخارجية. ولعل هذا ما بدأ المصريون، حكما وشعبا يشعرون بوطأته وخطره. في هذا البعد الاستراتيجي الذي يتلخص بالتعامل الحربي المباشر مع بنية مجتمعنا، ترتسم خصوصية المرحلة الحربية الراهنة.

٣- خصوصية عامل الزمن عندنا

في خلفية الكثير من فكرنا وعملنا القوميين مراهنة على عامل الزمن.

الموقف النظري في هذه المراهنة يتلخص بما يلي: الشعوب انتصرت في الصراع الأخير على الاستعمار والامبريالية مهما تفوقت قوى الامبريالية المادية. والأمثلة على ذلك لا حصر لها. ولم يشد عن هذه القاعدة أحد.

ومن جهة ثانية هناك مبدا حتمية التقدم، فلا يعقل أن نسير الى الوراء. فالمسألة مسألة وقت. والزمن الى جانبنا. هذا ما يلخص الخلفية النظرية للمراهنة على عامل الزمن.

اولا: في رأينا ان هذه الخلفية النظرية لا تنطبق على حالتنا بأي شكل.

ثانيا: الاعتماد عليها، في موضوعنا، قائم على الجهل الكامل.

ثالثا: سمحت هذه الخلفية بأن ينضوي تحتها ويقبع أكثر من نقيصة وأكثر من رذيلة، منها الكسل الذهني المتفشي الذي يجد في المراهنة على عامل الزمن خلاصا من عناء الفكر وقلق النفس، ومنها الانحلال الصراعي الذي يجد فيها منفذا لتبرير التهرب من العمل والصراع، ومنها الانحلال الأخلاقي الذي يجد فيها بابا للتحلل من المسؤولية.

رابعا: الاعتماد على هذه الخلفية في موضوعنا القومي والسياسي والاجتماعي، ادى، منذ العشرينات، الى كوارث عندنا. وإذا نظرنا الآن الى نصف القرن الأخير من حياتنا نظرة متفحصة واقعية، وقمنا بعملية مراجعة في العمق لرسم خط بياني دقيق لأوضاعنا، تبين لنا اننا في خط انحداري متسارع. ففي رأينا أن فرص العمل الانشائي في حياتنا المفرغة وفرص العمل الصراعي في حياتنا المهددة وفرص العمل التغييري في حياتنا المجمدة وحتى فرص العمل الإصلاحي البسيط في حياتنا المخربة، هي على تناقض وتراجع سنة بعد سنة وعقدا بعد عقد. ففي الأربعينات والخمسينات اصبحت مهمتنا الانشائية والصراعية والتغييرية والاصلاحية أصعب منها في العشرينات والثلاثينات.

وكذلك في الستينات والسبعينات اصبحت أصعب منها في العقدين السابقين. بل أكثر من ذلك. ان سرعة الانحدار تتزايد عقدا بعد عقد، خاصة في السنوات العشر الأخيرة التي يمكن اعتبار تراجعاتنا فيها موازية لتراجعات نصف القرن بكامله.

وفي رأيي أن الأصوات التفاؤلية المرتفعة، معددة انتصاراتنا، مسجلة انجازاتنا، مطمئنة الى مصيرنا مؤكدة حتمية انتصارنا الاخير، هكذا في المطلق، انما هي تفاؤلية مريضة أما في فكرها واما في اخلاقها. ان خصوصية عامل الزمن عندنا في ضوء طبيعة الحرب علينا وتطورات هذه الحرب، هي أقوى خصوصية.

4- الرد الفريد: او فلسفة حرب تحريرنا القومية

لقد توقفنا طويلا، نسبيا، عند طبيعة هذه الحرب وأهدافها، وعند المرحلة الحربية الراهنة وأهم ملامحها، لنصل الى تعيين نوع ردنا نحن على هذه الحرب اي نوع حربنا التحريرية، طبيعتها، مقوماتها ومواصفاتها الاساسية.

في مواجهة الحروب التقليدية لكل حرب تحرير خصوصية اساسية فكيف في حربنا، ونحن نواجه الخصوصية الحربية بالذات فضلا عن مواجهتنا الحروب التقليدية الأخرى. فإذا توقفنا طويلا، نسبيا، عند طبيعة الحرب علينا وتطوراتها حتى مرحلتها الراهنة ومدى نجاحاتها فلاننا نعتقد أن هذا هو الطريق الصحيح للوصول الى تعيين مبدئيات حرب تحريرنا القومية. غير هذا الطريق يوصلنا الى لائحة عقاقير، مجرد لائحة عقاقير، وما اطولها لائحة وأكثرها عقاقير، الا انها كلها لا تصنع دواء. لنعد الى ما التزمنا به في مطلع هذا الحديث، أي محاولة رد المعادلات الي ابسط صيغها.

رأينا أن غرض الحرب الإسرائيلية هو تقويض مجتمعنا في اشمل عملية اجتثاثية، وأن فلسفة الحرب الإسرائيلية هي التعامل الحربي المباشر مع مجتمعنا. فهي، عموديا، تطارد ستة آلاف سنة من بعد مجتمعنا التاريخي. وهي، افقيا، تطارد اجيالنا الحاضرة في بنيتها وحياتها على ارض وطنها وحيث انتشرت في العالم فموضوع الحرب هو

المجتمع. ومسرح الحرب هو في قلب المجتمع. والمجتمع هو طرف الحرب، الأساسي الوحيد. وفلسفة حرب تحريرنا القومية تتلخص بمجتمع يخوض الحرب على حرية وعلى معرفة وعلى ارادة وعلى قدرة. هذه مواصفات المجتمع الحربي. وهذا يمر، في ضوء طبيعة حربنا، بمجتمع النهضة، الجديد.

لن نسترسل في مواصفات مجتمعنا الحربي، ومجتمع النهضة الجديد. ولكن لابد من التذكير اننا لا نعني بالمجتمع الحربي، مجتمع الخوذات الحديدية والبنادق والمدافع والطائرات، التي تبقى، رغم أهميتها، مجرد جانب من جوانب عدتنا الحربية. أن عدتنا الأساسية هي الانسان، وعدة انساقنا الاساسية هي ان تكون مجتمعا واحدا، متماسكا، حرا، عارفا ومريدا وقادرا. هذا ينسجم مع تعريف النهضة بانها الخروج من التفسخ والتضارب والشك إلى الوضوح والجلاء والثقة واليقين والايمان والعمل بإرادة واضحة وعزيمة صادقة. (المحاضرة الاولى من **المحاضرات العشر** - أنطون سعاده).

موضوع الحرب هو المجتمع. مسرح الحرب هو في قلب المجتمع. والمجتمع هو طرف الحرب الاساسي الوحيد.

لأول مرة في تاريخ الإنسانية يكون مجتمع ما معنيا، بكليته، بحرب مصيرية على هذه الشمولية، تتناوله في بعده التاريخي كما في حاضر أجياله ومستقبلها، وتتناوله في كل عام وفي كل خاص وفي كل تفصيلي.

ولأول مرة في تاريخ الانسانية يكون على مجتمع أن يرد «بكليته، بعامه وخاصه وتفاصيل بنيته، ليخوض حربه الشاملة، على جميع الجبهات، وفي وقت واحد، وبجميع قطاعاته ومرافقه ومؤسساته وافراده، دون أن يكون أمامه الا فسحة زمنية قصيرة جدا، نسبيا، وهي فسحة زمنية متاحة للتعويض عن فسحات حربية سابقة كانت فيها الحرب مخاضة من جانب واحد، جانب العدو وحده.

هذه، بأبسط الصيغ، معادلة فلسفة حربنا القومية الراهنة. هذا يعني أن المجتمع، ولا أحد غير المجتمع، هو طرف الحرب الاساسي. هذا يعني، تحديدا، أن لا أحد يستطيع أن يخوض هذه الحرب، على نجاح، إذا اعتبر نفسه بديلا عن المجتمع. لا الأنظمة ولا الجيوش ولا الاحزاب ولا المنظمات تستطيع أن تدعي انها البديلة وان تترك المجتمع على هذه الحالة.

وهذا يعني أن حربنا يجب أن نخوضها حيث هي بالفعل، لا حيث نشتهي، نفسيا، أن تكون، او حيث نجتهد، ذهنيا واستباديا انها هناك.

5 - ترجمة الرد في ضوء أوضاعنا القائمة

هنا نصل الى المفصل الاساسي، الى تحديد العمل وتحديد المسؤوليات وتعيين المسؤولين، وهذا من ضمن سلم أولويات عامة. قد يقول قائل: ولكن جعل المجتمع، كامل المجتمع، الشعب، كل الشعب، هو الموضوع وهو المسرح وهو الطرف الأساسي الصالح، يسيب القضية ويرمي بالكرة في ملعب الشعب ويعفي الأنظمة والحكومات والمنظمات والاحزاب من مسؤولياتها.

الحقيقة أن هذا استنتاج متسرع، وعكس ذلك تماما هو ما نتوصل اليه الان. اننا نريد أن نؤكد مسؤوليات الأنظمة والحكومات والمنظمات والاحزاب، وان نؤكد ضرورة استمرار وتصعيد عملها القائم، ولكننا من جهة ثانية نؤكد أن عليها أن تدرك أن مهمتها الأساسية أن تؤهل الشعب وتمنحه فرصة الاتجاه الصحيح، وذلك من ضمن نضالها نفسه. فالمهمتان متلازمتان على أن تكون مهمة تأهيل الشعب هي الغرض الأخير. فإذا كانت كل بناها، في جيوشها وميليشياتها وتنظيماتها ليست البديل عن الشعب الذي هو الموضوع والمسرح والطرف، عند ذلك ترتسم الحدود الفاصلة بين مسؤولياتها في تأهيل الشعب عبر نضالها نفسه، وبين تعديها صلاحياتها في اعتبار نفسها البديل عن الشعب، وهذا يؤدي، نظريا وعمليا، الى حرمان الشعب هذا الحق، اي الى الاعتداء على الشعب.

كما ترتسم الحدود الفاصلة بين الأنظمة والاحزاب والمنظمات المنبثقة من صميم الشعب المسؤولة تجاهه المؤمنة به كل الإيمان والمراهنة عليه في حسابها الأخير، وبين الذين تأمنت لهم السلطة وتأمن لهم السلاح والمال، دون أن يكون لقضية المجتمع علاقة بظهورهم، فاعتبروا أنفسهم بديلا.

وهنا نريد أن ننتقل من المبدأ والتعميم، الى التطبيق والتخصيص. ما هي شروط هذا المنطق، العملية؟ بل ما هي الشروط الواجب توفرها للشعب ليسترجع اتجاهه، ليسترجع هذا الحق؟

في رأينا أن الشروط الواجب توفرها ليست شروطا متواضعة لذلك يحسن بنا أن نصنفها الى شروط ضرورية وشروط كافية، ثم نكتفي من الشروط الضرورية بأولياتها وأساسياتها، حتى لا نخرج على حدود الممكن والمعقول في أدنى حدوده، وفي ضوء تعاملنا الواقعي مع الاطراف المعنية.

علما أن هذه الشروط الضرورية في أولياتها ليس من شأنها أن تنقل المجتمع من حالة الى حالة، ثم أن تنتظر حصول هذه الحالة للانتقال الى حرب التحرير. بل الغاية وضع المجتمع في اتجاه الصحيح، من ضمن عملية الصراع التحريري نفسه.

بالنسبة الى الانظمة والحكومات

ثلاثة تحديات تتعلق بأساسيات حياة مجتمعنا واجهت كل حكم في كل من كياناتنا منذ أكثر من نصف قرن. وفي التحديات الثلاثة سقط كل حكم في الامتحان. التحدي الأول موضوع العلمنة، موضوع الدين والدولة، موضوع حماية الدين من سوق التجارة السياسية وغير السياسية، وموضوع حماية المجتمع والدولة والوطن من تجار الدين والسياسة ومن اختلاطات الاجتهادات الدينية - السياسية. موضوع تأسيس المواطنة على العلاقة بالأرض وعلى العلاقة الممتدة في المجتمع بلا حدود ولا تمييز بكل عضو في المجتمع وبكل قطاع وبكل مؤسسة وبكل فرصة من فرص الواجب والمسؤولية والحق والحرية. انه، في الأخير، المدخل الصحي الى موضوع الانتماء وموضوع الهوية.

بكل اسف سقطت الأنظمة في هذا الامتحان، حتى لا نقول أكثر.

التحدي الثاني هو موضوع الوحدة القومية أو دورة الحياة القومية او الحدود الأولية من دورة الحياة بين الكيانات القائمة، التي تجدد عهد الدولة - المدينة بكل ضيق أفقها وبكل أنانياتها وبكل عجزها الذي اوصلها في النهاية إلى حتفها. مع فارق بسيط هو أن الدول - المدن الكنعانية لم تسجل على نفسها، طوال تاريخها، إنها خاضت حربا واحدة فيما بينها.

وحدها دورة الحياة تؤمن للمواطن وحدة النظر ووحدة الشعور ووحدة الثقافة وممارسة وحدة الحياة ووحدة المصير.

على دورة الحياة القومية وحدها يبنى اقتصاد سليم ودفاع سليم وتمثيل قومي سليم، في مواجهة العالم الخارجي.

هذا في بعض الايجابيات. أما السلبيات الحاصلة فلائحتها طويلة يضيق المجال هنا بذكرها. ولكننا نشدد على ظاهرتين خطرتين متزايدتين: الأولى تتعلق بالمواطن مباشرة، وهي الحروب الصغيرة بين الانظمة، التي تنعكس، عمليا، عقوبات ينزلها رجال كل حكم ليس فقط برجال الحكم الآخر بل بالنظام الآخر، بل بالكيان الآخر، بل بكل مواطن من مواطني الكيان الآخر. وهكذا يصبح كل مواطن في كل من كياناتنا خاضعا، بشكل مباشر أو مداور، لعقوبات تنزلها به انظمة كل من الكيانات الأخرى.

والظاهرة الثانية تتعلق بالمواطن ايضا ولكن عبر موضوع الحرب والسلم. وهنا أكتفي بالقول ان أكثر أنظمتنا لم يقتنع بعد بأن العدو يستهدفنا جميعا في الاخير وانه لا مجال لمرور السلم الإسرائيلي والحرب الإسرائيلية الا على جثثنا جميعا. فلا مجال لتخليص رأس على حساب راس آخر، ولا مجال لتقديم فدية للتنين لتخليص المدينة، حتى لو كانت الفدية مدينة اخرى.

وهنا ايضا نكتفي من الوحدة القومية بالاتجاه على الاقل، بأقل الاجراءات التي تضع مرافق الحياة في الكيانات في اتجاه واحد وتسمح لحركة الحياة الطبيعية أن تأخذ دورها الطبيعي دون تدخلات سلبية. وإذا كان لابد من خلافات بين الأنظمة، وقد يكون بعضها مبررا، فلتنزل العقوبة بالنظام لا بالكيان ولا بالمواطن.

التحدي الثالث هو موضوع الحريات. لنذكر اننا في صدد موضوع حرب التحرير القومية. والتحرير القومي يمر حكما بالمجتمع الحر، بالمواطن الحر.

والحرية، الى جانب كونها ظروفا موضوعية وظروفا مادية، هي وضع اخلاقي ونفسي، وضع ذاتي، تحياها الذات الإنسانية كما تنشق الهواء وكما الغذاء والدفء والحركة الطبيعية للأجسام الحية. فالمجتمع لا يخوض حربه الا بالحرية. والحرية ليست مجرد شكل لرفع العتب.

اتكلم عن الايمان بالحرية بمفهومها العميق المؤسس على معرفة أن الإنسان لا يعمل، لا ينتج، لا يفكر، لا يحارب حربه الكبرى، لا يخلق، الا إذا كانت الحرية عميقة في وجدانه ومتحولة الى طمأنينة صحية في طيات نفسه، طمأنينة إلى قيمته وكرامته وجدوى تضحياته وفاعليتها في قلب مجتمعه اولا.

بل أكثر من ذلك. الإنسان لا تنمو تطلعاته وأحاسيسه الصحية، فيأمل ويتألم ويفرح ويحزن ويشجع ويخاف خوفه الكبير وقلقه الكبير على مجتمعه الا إذا كانت الحرية دخلت في نسيج كيانه وأصبحت تلفه وتلف فضاء كيانه، مؤمنة حوله كما الماء والاوكسجين وكما علاقته العضوية بالطبيعة التي يلمسها ويشمها ويسمعها ويبصرها ويتذوقها ويستنشقها ويعقلها.

وإذا كان هذا صحيحا بالنسبة إلى الشعوب عامة، فهو ينطبق بشكل خاص على شعبنا، الأصيل في ممارسة الحرية. وصاحب الرسالات الانسانية القائمة على القيم والروح الانسانية.

ومتى تذكرنا ان هذه الحرب، كل هذه الحرب تقوم على حيوية المجتمع، المباشرة، ومبادرة المجتمع، بامتياز ندرك كيف أن عامل الحرية حاسم في حرب تحريرنا.

لكن الحرية جوهر وليست شكلا محددا. اشكال الحرية الغربية هي انماط حياتية توصل اليها الغرب عبر تجربته الخاصة ووفقا لحاجاته ومستواها. ومع ذلك فإننا نشهد في الغرب أزمة بين الحرية واشكالها. اننا ندعو الى اعادة نظر بأكثر الصيحات المراهنة على اشكال وانماط للحرية أصبحت، في منشأها نفسه، موضوع اعادة نظر.

وفي الأخير، لابد لنا من أن نتذكر أن خطة العدو تقوم على التعامل الحربي المباشر مع بنية مجتمعنا. هذا يعني انه يحاول ان يمرر اعماله الحربية في قلب مجتمعنا تحت شعار حرية الحركة والعمل لجيوبه وادواته.

وهذا يعني أن قسما من جهودنا الحربية يجب أن تتحول الى ضرب البؤر المطالبة بحرية تهديم المجتمع وتمزيقه.

لا يفصل في هذه الأمور، في ما هو حرية المجتمع، الأساسية، وفي ما هو حرية العدو بتمزيق المجتمع من الداخل، الا العقلية الأخلاقية المسؤولة عن تأمين شروط انتصارنا في حربنا التحريرية عبر تأهيل المجتمع، من جهة، وعبر حمايته في داخله، من جهة ثانية.

بالنسبة إلى المنظمات والاحزاب

ان قسما كبيرا مما قلناه في شأن الانظمة والحكومات ينطبق على المنظمات والأحزاب. عليها دائما أن تذكر نفسها بأمرين:

الأمر الأول أنها ليست البديل عن الشعب الذي هو موضوع عملها ومسرح عملها، مصدرها ومالها. فإذا كانت حقا نموذجا ومصبا للممل الشعبي المنظم فلتكن في عملها يدا تقاتل العدو حيث تجده، ويدا تؤهل الشعب وتتعلم منه. هي هذه اصول لعبة القيادة في الشعب الاصيل الحي: القيادات تعطي الاتجاه والنموذج التنظيمي والشعب يشق الطريق ويقوم بالمسيرة ويصل هو الى هدفه.

إذا التزمت المنظمات والأحزاب بهذا المبدأ، بهذا الدور، بهذه الوظيفة في كل عمل وتصرف واجراء، عندئذ يتغير الكثير من خطط الأحزاب والمنظمات ويزول الكثير من متاعبها الحالية ومتاعب الشعب بها.

والأمر الثاني الذي يجب أن تذكر نفسها به هو أدق واشمل، وهو أنها لا تستطيع أن تختصر هذه الحرب القومية التي قلنا انها حرب المجتمع بكامله، لا تستطيع أن تختصرها بوجه من وجوهها او بقطاع واحد من قطاعاتها. فإذا كان المجتمع هو الجيش الكبير الذي علينا أن نعده، كما مر معنا في تحديد هوية الحرب علينا وهوية حربنا التحريرية، فلا يحق لنا اختصار هذا المجتمع - الجيش بحامل البندقية في شوارعنا. وحامل البندقية من اعضاء احزابنا ومنظماتنا الشعبية إذا لم يشعر انه يصدر عن جسم مركب هو المجتمع وهو مسؤول معنويا ومسلكيا في كل تصرف تجاهه، عندئذ يتمدد حامل البندقية على حساب محيطه وعلى حساب نفسه، يتمدد حتى الفساد، فساده هو وفساد وظيفته الأساسية والغاية البدائية من وجوده. يصير حامل البندقية بدون بنية اجتماعية يصدر عنها وتغذيه وتحميه كما هو يحميها. يصير حامل البندقية يحمي نفسه ويعتدي على جيشه اي على مجتمعه. أن واضعي القنابل في شوارعنا لا ينجحون بمهماتهم لان عدد مسلحي الحزب قليل في الشوارع بل لأن الشعب لم يؤهله وينظمه أحد على اساس انه جيش قضية.

واخيرا، عود على بدء.

ان خصوصية الحرب علينا وخصوصية المرحلة الراهنة وتسارعها، وخصوصية حرب تحريرنا القومية، كلها تصب في خصوصية اساسية يجب أن نجعلها شعارا لحياتنا، شعارا لنا ولبيوتنا وعائلاتنا، شعارا لأجيالنا التي لم تولد بعد، هي خصوصية صراع الموت والحياة بين اليهود ومجتمعنا.

ولنعلم أن الصهيونية ليست أشد الحركات اليهودية عدوانية.